قعر الحَلَّة

تتخلل رحلتي مع «آدم» زيارات يومية عديدة لطفولتي ولرحلتي مع التعليم، وخلال هذه الزيارات الكئيبة للماضي تعرفت على أسباب الحواجز النفسية الصلبة التي منعتني من التفوق في الرياضيات بمختلف فروعها والفيزياء واللغة العربية ومواد أخرى! اكتشفت أن جميع صعوبات التعلم التي واجهتها كانت بسبب الصدام المستمر بين أسلوب التعليم التقليدي المعتمد على التلقين والحفظ، وبين احتياجي للتعليم الحسي من خلال اللمس والحركة.

أتذكر نفسي كطفلة ذات السنوات السبع أحاول أن أستوعب معنى جدول الضرب! أحاول أن أفهم المطلوب مني بالتحديد! أحاول أن أجد منطقًا يساعدني على حل الطلاسم! أتذكر سؤالي لأمي عن معنى اثنين في اثنين، وأتذكر محاولتها لتفسير المعضلة باستخدام مَثل البرتقال! رأيت بعيني الكلام يتحول إلى حروف مفككة تطير في الهواء بعيدًا عن أذني ورأيتني أحاول أن أجمع الحروف التائهة بعيني بينما يتباعد صوت أمي في الخلفية، فشلت! طلبت من أمي الإعادة فكررت نفس الكلام وتفككت الحروف وطارت مرة أخرى!

لم أجرؤ على طلب الإعادة وحسمت أمي الموضوع بجملتها «هي كده! احفظيها كده!»

لقد ورث عني «آدم» هذا الاحتياج الأساسي للتعلم من خلال حواسه وورث كذلك قدرته على تكوين العلاقات بين الأشياء من خلال اللمس والحركة والوزن والحجم وغيرها من الخواص التي _لحسن الحظ_ يعتمد عليها نهج المونتيسوري. كان كتيب الرياضيات هو آخر كتيب في شهادتي «مونتيسوري لمرحلة الطفولة المبكرة من 3 – 6» ووجدت فيه المعجزات التي انتظرتها سنوات!

يعتمد تدريس منهج الرياضيات على أنشطة ومواد صممتها د. «ماريا مونتيسوري» خصوصًا لمساعدة الأطفال على إدراك كل ما هو نظري ومجرد ومبهم من خلال الحواس! إذا كان طفلك يستطيع العد من واحد إلى تسعة، سوف يستطيع جمع 4367 و2432 وسوف يطرح 650 من 5764 وسوف يضرب 2432 في 3 وسوف يقسم 7895 على أربعة ويعطيك الباقي! من خلال أنشطة «الخرز الذهبي» يتعلم الطفل الآحاد والعشرات والمئات والآلاف بطريقة ملموسة مرئية.

بخلاف صعوبات التعلم التي ورثها «آدم» عن والده، وبخلاف احتياجه لتحويل كل مجرد إلى ملموس محسوس، الذي ورثه عني، ورث عني أيضًا ضعف الاستيعاب السماعي. في فترة ما، كنت أكتب مقالات منتظمة لموقع تم حجبه، تطوع أحد الشباب بتسجيل مقالاتي صوتيًّا، ورفعها على موقع ساوند كلاود ليستفيد بها ضعاف البصر والمكفوفون. قام إبراهيم بتسجيل أول مقال وأرسل لي الرابط للاستماع إليه.

صوت إبراهيم متميز وقراءته عظيمة ولكني لم أفهم شيئًا! المقال مقالي والكلام كلامي والتسجيل مضبوط ولكني لم أفهم شيئًا! عقلي لم يستوعب الكلام. أسمع الكلمات وأدركها لأن سمعي سليم، ولكن عقلي لم يفك شفرات الكلمات ولم يحولها إلى معلومات أو أفكار! شكرت إبراهيم على مجهوده وطلبت منه الاستمرار، وبعد فترة أرسل إليَّ ملفًّا جديدًا وحدث نفس الشيء! أنا لا أفهم شيئًا مما أسمع!

عدت بذاكرتي للوراء قليلًا، في محاولة مني لتتبع بداية هذه المشكلة في إدراكي، فتذكرت حادثة الكتب المسجلة! منذ حوالي 15 سنة، اشتريت كتب دكتور «جون جراي» المسجلة

جميعها! تتناول هذه الكتب العلاقات العاطفية من زوايا مختلفة، وبعد أن قرأت الكتب الورقية، أردت أن أستمع إلى النسخة المسجلة! رغم لغتي الإنجليزية الجيدة، لم أستوعب شيئًا مما أسمع، ومعظم الشرائط في مكتبتي حتى الآن في علبتها لم تفتح! ثم تذكرت مراهقتي وعلاقتي بالأغاني! لا أحفظ شيئًا ولا أتذكر شيئًا ولا أردد شيئًا! تذكرت كذلك أنني حينما أردت أن أجاري زميلاتي في المدرسة في حفظ وترديد الأغاني، قمت بسماع جملة بجملة وكتابتها كلمة كلمة ثم الاستماع للأغنية كاملة وأنا أنظر لما كتبت!

أنا و«آدم»، وهناك غيرنا، نعاني من نفس المشكلة بدرجات متفاوتة. المشكلة أننا لا نستوعب سماعيًّا وذكاؤنا ليس سمعيًا، ولكن نظام التعليم في المدارس والدروس الخصوصية يخاطب من لهم حظ أوفر من نسبة الذكاء السمعي! لا نفهم في المحاضرات ولا الرحلات الميدانية مع مرشد أو موجه أو مدرس! لا نفهم في فصل مكتظ بالطلبة وصوت مصدره رجل أو امرأة في مواجهتنا يردد عبارات غير مفهومة بصورة متواصلة لمدة 45 دقيقة!

أنظر إلى «آدم» وقد ورث عني نفس النمط التعليمي! كيف يتعلم أمثالنا؟ نتعلم من خلال التجارب العملية واللمس والكتابة وصناعة شيء ما بأيدينا! نتعلم عندما نكون جزءًا من العملية التعليمية بدلًا من أن نكون متلقين سلبيين لما يقال. نتعلم من خلال الحركة ومن خلال تطبيق خطوات محددة ومن خلال الصور والرسومات التوضيحية. يدرك عقلنا من خلال الفعل واللمس والبصر! إذا أردت أن تعلمني الجغرافيا، قدم لي بازل أو خريطة جذابة، أو خذني في رحلة إلى حديقة الحيوان لأشاهد الحيوانات من مختلف القارات والمناخ المناسب لهم وطعامهم وتفاصيل حياتهم. دعني ألمس العالم بحواسي بدلًا من أن تلقنني درسًا عن المناخ والتضاريس!

كم أحببت دراسة التاريخ والجغرافيا أثناء دراستي للمونتيسوري. لقد أزالت عني «ماريا مونتيسوري» وصمة التلميذ الخائب!